موقف قاسم أمين من الحضارة الغربية ودلالاته المعاصرة

أ.م.د. ناصر محمد عبد اللطيف المهدي[1]

ملخص البحث:

يحاول هذا البحث تسليط الضوء علي رؤية قاسم أمين للحضارة الغربية,حيث أن معظم الأبحاث قد تمركزت علي رؤيته لقضايا المرأة بوجه خاص, في هذا البحث نوضح رؤيته للغرب **من عدة نواحي:**- الناحية الحضارية الذي يحاول من خلالها الوقوف علي مدي التقدم الحضاري الغربي والعربي والمقارنة بينهما، والناحية الدينية والذي يحاول من خلالها الوقوف علي دور الدين في صياغة فلسفة النهضة وموقفه من الصراع الاستشراقي والناحية الاجتماعية والذي يحاول من خلالها معالجه الأمراض الاجتماعية, وخاصة قضية المرأة وموقف الحضارة الغربية والعربية منها والتي يتضح من خلال البحث التحليلي لرؤيته أن موقفه من الأخر لم يكن علي وتيرة واحدة في كل كتاباته, اذا وجد أن الكتابات الأولي حملت

---

[1] **الباحث**: أ.م.د.ناصر محمد عبداللطيف المهدي- أستاذ مساعد الفكر العربي الحديث والمعاصر- قسم الفلسفة- كلية الآداب جامعة سوهاج, من مواليد محافظة سوهاج- مصر- عام ١٩٧٠م, حصل علي ليسانس الآداب- جامعة أسيوط بتقدير جيد جداً عام ١٩٩٢م, ثم حصل علي الماجستير في الآداب من جامعة جنوب الوادي عام ١٩٩٧م **برسالة تحت عنوان** "الفكر الديني والسياسي عند رشيد رضا وفريد وجدي" بتقدير ممتاز, ثم حصل علي الدكتوراه من كلية الآداب- جامعة سوهاج **في رسالة بعنوان** "فلسفة النهضة عند إسماعيل مظهر" عام ٢٠٠٠م بتقدير مرتبة الشرف الأولي, عمل المذكور معيداً بقسم الفلسفة ابتداء من عام ١٩٩٣ ثم مدرس مساعد بذات القسم ابتداء من عام ١٩٩٧م ثم مدرس ابتداء من عام ٢٠٠٠م ثم حصل علي درجة أستاذ مساعد الفكر العربي الحديث والمعاصر عام ٢٠١٩م.

*الباحث له العديد من المؤلفات والأبحاث المنشورة في دورات ومجلات محلية وعربية في مجال الفكر العربي الحديث والمعاصر.

(ISSN: 2536 - 9555)

قدراً كبيراً من الوضوح في مواقفه, علي عكس الكتابات الأخيرة بداية من عام ١٩٠٠م إذ تحول فيها ناحية الحضارة الغربية أكثر,إن كان في كل هذا لم يحمل فكره قطيعة معرفية مع الآخر, كذلك من مواطن الطرافة في هذا البحث, هو أن المشكلات الحضارية والدينية والاجتماعية التي ناقشها قاسم أمين في علاقة الأنا والأخر مازالت لها دلالات علي الواقع العربي والإسلامي المعاصر, وكأن قاسم أمين يعيش بيننا الأن.

الكلمات الدالة:-

الحضارة- الثقافة- الصدام بين الحضارات- الحوار المتبادل- الاستشراق- تحرير المرأة- قوة الأنا.

Qasim Amin's position on Western civilization and its contemporary implications

Research Summary:

This research discussed Qassem Amin's vision of Western civilization, as most of the research has focused on his vision of women's issues in particular. It clarified his vision from western in different aspects: the civilizational aspect in which he tried to indicate the extent of the western progress and the arab progress and make comparison between them. the social aspect, through which he tries to treat social diseases, especially the issue of women and the attitude of Western and Arab civilization towards it The religious aspect, through which he tries to identify the role of religion in formulating the philosophy of Renaissance and its position on the orientalist conflict. His position on the other was not the same in all his writings. His first writings carried a great deal of clarity in his positions, unlike the recent writings starting in 1900, when he shifted towards Western civilization more. From aspects of wit in this research, that the civilizational,

religious and social problems discussed by him In the relationship of the ego and the other, it still has implications for the contemporary Arab reality, as if Qasim Amin lives among us now.

Key words:- Civilization- culture- clash of civilizations- mutual dialogue– orientalism- women's liberation- the power of ego.

مقدمـــة:

ليس من الصعوبة أن ندرك أهمية العلاقة بين الحضارة العربية والحضارة الغربية، باعتبارها من القضايا التي لها جذورها التاريخية وأصداؤها المعاصرة في التأثير الفعال والرئيس على مجريات النهضة العربية في مختلف مراحلها، وتزداد أهمية هذه القضية في العصر الحديث نظراً لأن الأمة العربية قد اكتفت، منذ زمن طويل، بلعب دور المستجيب دون المؤثر في مسيرة التقدم الحضاري، هذا من ناحية. كما أن العلاقة بين الحضارة العربية والحضارة الغربية شابتها متغيرات كثيرة، أهمها "ازدواجية المعايير الغربية" في التعامل مع دول العالم العربي والإسلامي خاصة، التي انحصرت– غالباً– في استخدام منطق "العصا والجزرة"، حسب ما تقتضيه المصلحة، دون النظر إلى العالم العربي نظرة ندية واحترام من منطلق الشراكة الإنسانية في بناء الحضارة، من ناحية أخرى.

ومن الجدير بالذكر أن الحديث حول "ازدواجية المعايير الغربية" في التعامل مع الدول العربية والإسلامية في قضايا عديدة، منها على سبيل المثال لا الحصر: قضايا حقوق الإنسان، وأسلحة الدمار الشامل، والسيادة الدولية، والسياسات الاقتصادية، وغيرها، هذا الحديث لا يمثل افتئاءً على هذه الحضارة، لأنه أصبح من البديهيات التي لا ينكرها أكثر المنظرين تعصباً لتفرد الحضارة الغربية دون سواها من الحضارات، ولا يقلل من هذه الازدواجية محاولته تبريرها

(ISSN: 2536 - 9555)

عن طريق حصرها في التطبيق العملي دون المبادئ والنظريات الغربية في ذاتها، يقول صمويل هنتنجتون: "ازدواجية المعايير في الممارسة العملية هي الثمن الذي لا يمكن تجنبه في مستويات المبادئ العالمية"(١).

وهذا يشكل– في نظرنا– دافعاً للبحث في كيفية تعاطي المفكرين العرب مع هذه الحضارة وتفاعلهم معها، سلباً وإيجاباً، خاصة وأنها كانت– وما تزال– هي المواجه الرئيسي لهم في محاولاتهم إفاقة الأمة العربية من الغيبوبة التي طالت.

ويُعد قاسم أمين (١٨٦٥–١٩٠٨م) واحد من هؤلاء المفكرين الذين عاصروا الهيمنة الأوروبية على الأرض، وأدركوا الصحوة الأمريكية، فشغلته ثقافة الآخر وتفاعل معها، فكانت آراؤه مثاراً للجدل والاختلاف بين الباحثين، وإن لم تنل نصيبها – في نظرنا– من الدراسة المتأنية لنصوصه كاملة لفهم مراده من وراءها, مع الاعتبار أ، القارئ لأعمال قاسم أمين يشعر بأن دوافعه في الكتابات الأولى مثل: "كلمات", "أسباب ونتائج", "المصريون" تختلف عن تلك التي كتب من خلالها "المرأة الجديدة" خصوصاَ.

يمكن حصر الأسئلة التي نتوقع أن يجيب عنها هذا البحث في الآتي:

- هل اقتصر موقف قاسم أمين من الحضارة الغربية على القضايا الاجتماعية فقط، وخاصة قضية تحرير المرأة، أم أن فكره شمل توجهات مهمة أخرى يجب التركيز عليها؟
- هل جاء موقف قاسم أمين من الآخر في سياق واحد، أم أن هناك نوعاً من التطور الفكري حدث، وما هي دلالاته؟
- هل يمكن الاستفادة من تشخيص قاسم أمين لواقع العلاقة بين الأنا والآخر، في فهم أبعاد هذه العلاقة حاضراً ومستقبلاً؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة نتناول عند قاسم أمين الأبعاد الآتية في موقفه من الحضارة الغربية.

أولاً: البعد الحضاري

نود أن نشير إلى أن منهجنا في تحليل فكر قاسم أمين من الناحية الحضارية يعتمد على شقين، **الأول:** هو المقارنة بين الحضارة العربية والحضارة الأوروبية من خلال الإنجاز الحضاري، أي الصراع على المكانة التاريخية، **أما الشق الثاني:** فهو تحليل العلاقة بين الأنا والآخر على مستوى الواقع المُعاش، حاضراً ومستقبلاً، بكل ما يحمله من تعقيد وتشابك.

بداية يقف قاسم أمين من المدنية الأوربية موقف الناقد والمُحلل؛ فيرفض دعوى التفرد لهذه المدنية وعدم تأثرها بالمدنيات الأخرى التي سبقتها، تلك الدعوى التي أثيرت منذ مطلع القرن التاسع عشر، ومازال أصداؤها في الكتابات المعاصرة في صراع الحضارات. ويرى أن أوربا جاءت في آخر سلسلة الحضارة حتى تقطف ثمار هذه التجربة الطويلة، فبعد أن أمضت قرون تتحسس الطرقات انتهي بها الأمر إلى اكتشاف الطريق الصحيح، وهو طريق العلم الذي اتخذته أساساً لبناء حضارتها، فأعطاها الاستمرار والاستقرار من بين كل الحضارات التي سبقتها(٢).

وبناءً عليه يرفض قاسم أمين النظرة الاستعلائية من الحضارة الغربية للحضارات الشرقية بوجه عام، ويطالب الحضارة الغربية باحترام التراث الفكري والحضاري الشرقي باعتبار إنهما شركاء في مسيرة الحضارة الإنسانية، يقول: "نود أن نهنئ أوربا بحظها الذي ظفرت به، في غمار الأحداث، لكنا نود أيضاً ألا يُنظر إلينا بعين الزراية المتعالية التي ترفض أن تتذكر، أن الشرق كان أول صانع للحضارة، وأنه هو الذي شكلها وطورها، وبثها هذا التراث الثمين الذي تستمتع به اليوم، وأن جميع الأفكار الفلسفية والعلمية والدينية لم تخرج في مجموعها إلا من الشرق"(٣).

وبنوع من التخصيص يركز قاسم أمين على الإنجاز الحضاري العربي-الإسلامي في العصر الوسيط، فيرى أنه في الوقت الذي كانت أوروبا تعيش في

(ISSN: 2536 - 9555)

ظلام عميق، كان العرب يبنون حضارتهم التي لم يقف الدين الإسلامي عائقاً في سبيل تقدمها، فلم يعق الإسلام التطور الفكري الإنساني في أي ظرف، ولم يمنع ازدهار العلوم والفنون والاكتشافات الرائعة، بالإضافة إلى الجدل الفكري الذي ألهب هذه العقول ووضع أمامها إشكاليات سابقة لعصرها، مثل حرية الإرادة، وخلق القرآن، وغيرها من القضايا التي كانت تناقش بين مختلف الطوائف والملل في جو من الحرية الفكرية ساهم في بناء أعظم نصب أقامه العقل البشرى وهو علم أصول الفقه الذي يزعم البعض نقله عن القانون الروماني، في حين أنه مجال إسلامي أصيل(٤).

ويتحدث في هذا الإطار عن تقدم الحضارة العربية، على المستوى العلمي والسياسي، باعتبارهما ركنان أساسيان في بناء التقدم، فيثنى على المبادئ والأصول الإسلامية التي دفعت العرب الأوائل إلى العلوم والفنون، وجعلتهم يطوفون العالم بنشاطهم الفكري والعلمي، حتى أصبحوا في زمن قياسي سادة العالم(٥). وفيما يخص المستوى السياسي، فإن قاسم أمين يجعل النظام السياسي الإسلامي عاملاً أساسياً من عوامل تقدم العرب في حضارتهم، فقد كان منهجهم متطابق مع الأخلاقيات والوصايا الإسلامية، ولم تنهار حضارتهم إلا حينما أهملوا تطبيق هذا النظام السياسي(٦).

وينتقل قاسم أمين من تحليل مضمون الإنجاز الحضاري لكل من الحضارة الأوربية والحضارة العربية إلى تحليل منهج الأولى في التعامل مع الحضارات الأخرى، من خلال التركيز على محور قيام هذه الحضارة وهو الإنسان، فيحكم على مسيرته بأنها مسيرة مادية نفعية بحتة لا تراعى إلا مصلحتها حتى لو قضت على مصالح الآخرين، وكأن قاسم أمين يشخص حالة الحضارة الغربية الراهنة وليست حالة القرن التاسع عشر، فيرى أن الإنسان الغربي لم يترك شبراً من الأرض إلا ووطئه بقدمه، وكلما دخل مكان استولى على منابع الثروة فيه، من

زراعة وصناعة وتجارة، وأنه لم يدع وسيلة من الوسائل إلا استعملها فيما يعود عليه بالمنفعة، وإن أضر بجميع من حوله من البشر، فهو إنما يسعى إلى السعادة في هذه الحياة الدنيا يطلبها أنى وجدها، وبأي طريقة يرى النجاح فيها، وهو في الغالب يستعمل قوة عقله، فإذا دعت الحاجة إلى العنف واستعمال القوة لجأ إليها، فهو لا يطلب الفخار والمجد فيما يملك أو يستعمر، لأنه يجد ذلك متوفراً له في أعماله العقلية واختراعاته العلمية، وإنما هدفه الرئيسي من وراء الاستعمار هو حب المنفعة والرغبة في تحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وأوجه الاستفادة منها(٧).

غير أن سيادة المدنية الغربية على المدنيات الأخرى بهذه الطريقة النفعية المادية لا يعطيها الأفضلية، إذ يرى قاسم أمين أنه على الرغم من التقدم السياسي والاقتصادي والعسكري الذي أحرزته الحضارة الغربية، فإنها فشلت في أن تجعل أبناءها الأفضل، فقد أشاعت النور من وجه وأزاحت الفضيلة من الوجه الآخر، كما أنها أهملت تربية النفوس، فأوحت إلى أبناءها أن السماء خاوية وأن الأرض هي الفردوس الممكن الوحيد، وأن منتهي الحكمة في اللذة وإشباع الشهوات، وبالجملة فقد غدت الأخلاق عندهم مسألة خوف من العقوبة وليست مسألة واجب(٨).

لذلك فإن منهج الإنسان الغربي عند قاسم أمين لا يخرج عن طريقين، **الأول:** السيطرة على الأرض والشعوب واحتلالها بالقوة، وذلك عند الأمم البعيدة عن التحضر، أما الأمم التي تمتلك ماض من التحضر والمدنية أو ما يسميه قاسم أمين، دين وشرائع وأخلاق وعادات ونظم، فإن الطريق **الثاني** هو الأصلح معها والذي يتمثل في السيطرة الثقافية أو لأن وهي ما يسميه قاسم أمين "المخالطة"، عن طريق التعامل والمعاشرة بالمعروف، حتى يضعوا أيديهم على أسباب الثروة؛ فيتقدموا كل يوم، وكلما تقدموا تأخر سكان البلاد الأصليين، ويصبح البقاء

(ISSN: 2536 - 9555)

للأصلح والأقوى، وحينذاك تصبح الحضارة الغربية هي الغالبة والسائدة[٩].

ويستقى قاسم أمين من منهج الأوروبيين في التعامل مع المصريين نموذجاً عملياً لهذه النظرة المادية النفعية، التي تتمثل في التدخل الدائم من أوروبا في الشئون الداخلية المصرية، وفي إجهاض أي محاولة لقيام نهضة مصرية أو عربية، حتى وصل الأمر إلى اعتبار أوروبا بمثابة العقبة التي تقف في طريق استعادة المصريين والعرب مكانهم في العالم، ويتساءل قاسم أمين: "هل يمكن أن نتصور حقاً أن تستطيع بلد أن تسير وقد شدت أقدامها أغلال ثقيلة؟ وكيف نستطيع ضمان الأمن والنظام والرخاء في بلادنا، حين تعترض أوروبا طريق مبادراتنا وقراراتنا وأفكارنا؟ وكيف يستطيع المصريون أن يتهيئوا لكي تكون مصر للمصريين، في حين أن أوروبا القوية تريد أن تكون مصر للأوروبيين"[١٠].

ولذلك يلقى قاسم أمين، تبعات الصراع بين الحضارة العربية والحضارة الغربية، على عاتق الأخيرة ويحملها مسئولية وصول حدة الصراع إلى درجة "الكراهية البغيضة" من الطرفين، على حد تعبيره، وتفسير ذلك عنده هو تلك الوجهة التي يتعامل بها الآخر مع الأنا، والتي تنطوي على تسامح شديد من ناحية الأنا في مقابل تعنت وتعصب شديدين من ناحية الآخر، الذي يحتقر الأنا ويحاول أن يقصيها عن طريقه.

وبناءً عليه يعترض قاسم أمين على الرؤى التي تكرس الفوارق العقلية بين الأنا والآخر ويرى أن هذه التفرقة العرقية غير مقبولة، لأنها تضع الأنا في مستوى أقل من مستوى الآخر من حيث القدرة على التفكير والإبداع[١١].

وبعيداً عن نظرية المؤامرة، نعتقد أن تحليل قاسم أمين السابق لمنهج الغرب في التعامل مع العرب، تحليل دقيق، وينطبق على الواقع المعاصر أكثر من انطباقه على واقع عام ١٨٩٤م، وقت أن دشن قاسم أمين وجهته هذه، ذلك الأسلوب الذي يتلخص في النظرة المادية النفعية الاستعلائية للغرب، والتي تغيرت

في الشكل فقط أما المضمون فباق كما هو، إذ تحولت مسميات من قبيل الاستعمار والانتداب الأجنبي إلى سيطرة ثقافية اقتصادية وعسكرية تحت مسميات من قبيل: نشر الديمقراطية، وتحقيق التنمية، وحماية المجتمع الدولي من خطر الانتشار النووي، وغيرها من المسميات الزائفة التي تعاضدت في سبيل تحقيقها الجهود الأوروأمريكية، ولم تعد قاصرة فقط على الأمة العربية، بل شملت معظم أرجاء المعمورة، والتي من أهم آثارها توسيع هوة الخلاف بين الحضارات.

ومع هذا، فإن قاسم أمين لا ينكر فضل الحضارة الغربية، باعتبارها حضارة إنسانية راقية، اختلطت بالعرب وبالمصريين اختلاطاً كبيراً، لكنه لا يرى في تقليد هذه الحضارة الدواء الناجح لأمراض الأمة العربية في العصر الحديث(١٢). **أما الدواء عنده فيكمن في عاملين مهمين هما:-**

العامل الأول: استعداد الأمة العربية التام لهذا الصراع، بكل ما أوتت من قوة، بنفس الوسائل التي يحاربها بها الغرب، وأهم وسيلتين في ذلك هما: العلم والعقل، أساس كل قوة سواهما، يقول: "فإذا تعلمت الأمة كما يتعلم مزاحموها- الغربيين- وسلكت في التربية مسالكهم، وأخذت في الأعمال مأخذهم، وتدرعت للكفاح بمثل ما تدرعوا، أمكنها أن تعيش بجانبهم، بل تيسر لها أن تسابقهم فتسبقهم، فتتأثر بالخير دونهم، لأن البلاد بلادها وأرضها أبر بها منها بالغريب عنها، وأبناءها أقدر على المعيشة فيها، وهم السواء الأعظم"(١٣).

ويلقى قاسم أمين باللائمة، في هذا السياق، على نموذج الإنسان العربي ويحمله تبعات تخلف الأنا وتراجعها مقارنة بنموذج الإنسان الأوربي، فما يميز الإنسان الأوروبي، ويتمنى قاسم أمين أن يكون موجوداً في الإنسان العربي، هو التكوين الذاتي من حب الرغبة في العمل والجد والاجتهاد في الحياة المزروعة في نفس الإنسان الأوروبي والمنزوعة من نفس الإنسان العربي، فالتربية والعادة أوجدتا في الأول حب الجد والعمل فهو "يتفكر في كل شئ، ويلاحظ كل شئ، ويجرب

(ISSN: 2536 - 9555)

كل شئ، فإن وصل وفاز شجعه النجاح على الاستمرار، وإن خاب ووجد في طريقه عقبة لم يستطع إزالتها بهمته، استأنف السعي في عمل آخر، أو في نفس العمل من طريق آخر، فهو على كل حال حي ثابت عامل، جسمه يتحرك، ومخه يؤدى وظيفته كأنه آلة، وعلى العكس من ذلك الواحد منا معاشر المصريين– أو العرب– يمشى الهوينا خطوة خطوة، وعلى عينيه غماء، فيجاهد بنفسه خطوة ثم يقف، وهكذا حتى المساء، ثم يهوى بجسمه كالشبح المرضوض على الأرض، فينام تعباً كسولاً"(١٤).

ومن النواحي المهمة التي تفتقر إليها الأمة العربية وبرعت فيها الأمم الأوروبية، النهضة الاقتصادية، فيرى أن الغرب اهتم بالمسائل الاقتصادية اهتماماً كبيراً، وصارت كل أمة غربية تزاحم الأخرى في هذا السبيل، مزاحمة تصل إلى درجة التنافس وإقامة الحروب من أجل السيطرة الاقتصادية، في حين أن الأمة الغربية تقوم بدور المشرف على هذا التنافس، والإعجاب بهذه الأمة والاستهزاء بتلك، وكأننا ليسنا من كوكب الأرض وغير معنيين بما يدور عليه(١٥).

أما العامل الثاني: عدم التخلي عن التراث أو ما يسميه قاسم أمين "الماضي" ولكن غربلة أو تنقية هذا التراث حتى يتبين لنا ما يجب أن نتخلى عنه فيه، وما يجب أن نتمسك به، وأول ما يجب أن نتخلى عنه هو العادات والتقاليد التي عفي عليها الزمن ولم تعد مناسبة لتسيير شئون حياتنا في الوقت الراهن، لذلك يعتبر قاسم أمين أن التمسك بتلك التقاليد من الأسباب المهمة لتأخر الأمة العربية، لأن هذه العادات والتقاليد اكتسبت الحصانة بمرور الزمن عليها، كونها آتية إلينا من السلف، مع أن هذا لا يُعد سبباً كافياً للأخذ بها والبقاء عليها، نظراً لتغير الظروف وتبدل الأحوال، ففي الوقت الراهن نحن لنا مصالح ولمن سبقنا مصالح، ولنا حاجات لم تكن لهم، وكانت لهم حاجات ليست لنا اليوم(١٦).

وفي هذا الإطار يؤكد قاسم أمين أن باب الاجتهاد مفتوح، لأن الأحكام

الشرعية جاءت في الغالب مطلقة وجارية على ما تقتضيه العادات الحسنة ومكارم الأخلاق، ووكلت فهم الجزئيات إلى أنظار المكلفين ووضعتها تحت تصرفهم واجتهادهم، فالشريعة الإسلامية إنما هي كليات وحدود عامة، ولو كانت تعرضت إلى جزئيات، لما حق لها أن تكون شرعاً يمكن أن يجد فيه أهل كل زمان وكل أمة ما يوافق مصالحها(١٧).

نلاحظ فيما سبق أن قاسم أمين يركز على مواطن التمايز بين الحضارة العربية والحضارة الأوروبية، بما يحفظ للأولى مكانتها ودورها، ويجعلها محركاً رئيسياً لبواعث النهضة والتقدم، في وجه محاولات الثانية استلاب هذا منها وتهميشها، وهذا يجعلنا نقرر أن قاسم أمين– في هذه المرحلة– رفض ذوبان الأنا في الآخر، وأفرد للحضارة العربية الدور الملائم لإنجازاتها وتاريخها، باعتبارها المعين الأساسي الذي يمكن أن تقوم عليه النهضة العربية مرة أخرى، إذا تلاشت النواقص التي عددها في الأنا. ويتضح ايضاً تأثره بالمنهج الأوربي في ضرورة إعادة تربية العقل الجمعي المصري ليقلع عن أسباب التأخر والأخذ بعوامل التقدم.

وفيما يخص النواقص نود أن نلفت نظر القارئ أن رؤية قاسم أمين في هذا الصدد قد تثير نوعاً من اللبث والغموض، إذ كيف يتسق هجومه على نموذج الإنسان الأوروبي، مع دعوته إلى استلهام هذا النموذج حتى يخرج الأنا من حالة التأخر والجمود، ونفس الأمر ينطبق على تقدم الحضارة الغربية المادي (الاقتصادي والعسكري)، إلا أن هذا اللبث– في نظرنا– يتلاشى بمجرد إدراك المقصد الأساسي من وراء دعوته، فقاسم أمين لا يرى مانعاً من أن نقتبس من روح الإنسان الغربي (الآخر) حبه للعمل والاجتهاد والمثابرة في الحياة الدنيا، ولكنه يرفض طريقته الميكافيلية في الوصول إلى أهدافه التي تتمثل في تغليب المصلحة المادية النفعية على حساب مصالح الآخرين، كما أنه يثمن تقدم الغرب المادي، ولكن ليس على حساب تأخره من الناحية الروحية، إذ يتفق قاسم أمين مع

(ISSN: 2536 - 9555)

كثير من فلاسفة التاريخ أمثال: شبنجلر (١٨٨٠-١٩٣٦م) وكارل ياسبرز (١٨٨٣-١٩٦٩م) ونيتشه (١٨٤٤-١٩٠٠م) الذين رأوا أن إفراط الآخر في الناحية المادية أضربه على المستوى الروحي والأخلاقي.

غير أن موقف قاسم أمين هذا لم يستمر حتى النهاية، إذ يمكن القول أنه بدأ يتحول تدريجياً نحو الإيمان المطلق بالحضارة الغربية ومقدرتها على قيادة مسيرة النهضة العربية، في مقابل التنكر للحضارة العربية والتشكيك في إنجازاتها ومقدرتها على إقالة العالم العربي من كبوته التي طالت، وقد ظهر ذلك جلياً في كتابه "المرأة الجديد" عام ١٩٠٠م، بالإضافة إلى تغير موقفه من العلاقة بين الأنا والآخر.

يقر، بداية، أن المدنية الإسلامية أو العربية- ولا فرق بين المسمين عنده- هي غير ما هو راسخ في مخيلة الكتاب الذين وصفوها بما يحبون أن تكون عليها وثبت أنها ناقصة من وجوه كثيرة، وأنها مرحلة يجب تجاوزها إلى التعامل مع الحاضر، فقد أصبحت تمثل لدى البعض عائقاً للتقدم، لأنه كلما تحدث الأوربيون عن التمدن الغربي الحديث بعلومه وفنونه، يتباهي العرب بالمدنية الإسلامية القديمة، وكأنها عجوز وصلت إلى سن الشيخوخة تتذكر جمالها وقت صباها[١٨].

وفي سبيل إثبات ذلك يقوم قاسم أمين بتحليل إنجازات كل من المدنية العربية والمدنية الغربية, حتى يوضح أيهما أجدر بقيادة مسيرة النهضة في العصر الحاضر، يركز في هذا الإطار على عاملي التقدم العلمي والسياسي باعتبارهما ركيزتين أساسيتين من ركائز النهضة.

فيما يخص تقدم المدنية العربية من الناحية العلمية، يرى قاسم أمين أن العلم من أهم الأسس التي شيدت عليها تلك المدنية أصولها وآدابها، ولكن الحقيقة أن العلم في ذلك الوقت كان في أول نشأته، وكانت أصوله ضرباً من الظنون لا يؤيد أكثرها شئ من التجارب، هذا من ناحية، وكانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة

الدين، فتغلب الفقهاء على رجال العلم، وقاموا بالتدخل في المسائل العلمية البحتة وانتقدوها، بل وصل الأمر إلى وضع العلماء تحت مراقبتهم من ناحية أخرى.

وترتب على هذا التدخل السافر من رجال الدين في العلم، أنهم حكموا– عن جهل– بفساد النظريات العلمية، بناءً على تأويلات مختلفة للكتاب والحديث النبوي، وحملوا الناس على إساءة الظن بهذه النظريات، ومازالوا يطعنون على العلماء ويرمونهم بالزندقة، حتى نفر الجميع من دراسة العلم وهجروه، وانتهي بهم الاعتقاد أن كل العلوم باطلة إلا العلوم الدينية(١٩).

هذا هو حال العلم في المدنية العربية، أما عن وضع العلم في المدنية الغربية فالأمر مختلف، إذ يرى قاسم أمين أن الخلاف الذي وقع بين رجال العلم ورجال الدين اتخذ طابعاً خاصاً، لأن هذه المدنية ورثت علوم اليونان والرومان والعرب، وكان وصول تلك العلوم إليها قرب تمام تكوينها، ولم تستغرق أوروبا وقتاً طويلاً في اكتشاف الأصول الحقيقية لتلك العلوم، وقد نالت في مائتي سنة ما لم ينله غيرها في آلاف السنين في مختلف المجالات العلمية، وتوالت الاكتشافات والحقائق العلمية التي شيد العلم بناءً عليها صرحاً متيناً لا يمكن أن يُهدم، وتغلب رجال العلم على رجال الدين في أوروبا بعد صراع مرير وانتهي الحال بأن صارت للعلم مكانة وسلطة مُعترف بها، وظهر أثر ذلك جلياً على باقي مجالات التفكير الأخرى، الأدبية والاجتماعية والسياسية(٢٠).

هكذا، فإن المقارنة بين حال العلم في المدنية العربية والمدنية الغربية، يُظهر أن العلم بدأ وانتهي في الأولى قبل أن يُكشف الغطاء عن أصول العلوم، في حين أن الثانية وصلت إلى حقيقة تلك العلوم وأقامت عليها صرحاً علمياً متيناً، لذلك يرفض قاسم أمين وصف المدنية العربية بأنها "نموذج الكمال البشرى" وأن العرب وصلوا في التمدن إلى غاية ليس وراءها غاية، ويقرر أن دراسة التمدن العربي واجبة باعتباره عملاً انتفعت به الإنسانية وكملت به ما كان ناقصاً منها في بعض

(ISSN: 2536 - 9555)

أدوارها من ناحية، وأنها تحتوى على كثير من أصول معيشتنا المعاصرة من ناحية أخرى، ولكن كثير من وجوه هذا التمدن لا يمكن الاستفادة منها في الوقت الراهن.

أما فيما يخص التقدم السياسي، فإن قاسم أمين يحكم على النظام السياسي الإسلامي بأنه لم يكن في مستوى النظم السياسية الرومانية أو اليونانية القديمة، وبالتالي النظام السياسي الأوروبي الحديث، من حيث تشريع القوانين، وتشكيل المجالس النيابية، والجمعيات الأهلية التي تحفظ مصالح الأمة وتجعلها شريكة للحاكم في إدارة شئون الدولة، ويرجع ذلك إلى أن المدنية العربية لم ترق إلى تكوين نظام سياسي صالح لحفظ حقوق المحكومين، وما عرفته من النظم السياسية، هو النظام الاستبدادي الفردي المطلق، فقد كان شكل حكومتهم عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد، فهو صاحب الأمر والنهي وهو الذي يعقد الصلح ويقرر الضرائب ويضع الأحكام ويدير مصالح الأمة مستبداً برأيه، ولا يرى من الواجب عليه أن يشرك أحداً في أمره، أما عن وزراءه أو عماله، فكانوا يجرون في إدارتهم على حسب إرادتهم، فإن كانوا صالحين رجعوا إلى أصول العدالة قدر الإمكان، وإن كانوا غير ذلك خرجوا عن أصول العدالة وعاثوا في الأرض فساداً، وعاملوا الناس حسب هواهم، لأنه لا يوجد في النظام ما يردهم إلى الشريعة[٢١]. يقول قاسم أمين جازماً الرأي في هذه المسألة: "تحررت الجمعيات الإسلامية على اختلاف الأزمان والأماكن من النظامات السياسية التي تحدد حقوق الحاكم والمحكوم، وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام، بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادي دائماً"[٢٢].

وما يعزز هذا النظام الاستبدادي المطلق هو أن فقهاء المسلمين، عند قاسم أمين، لم يفكروا يوماً في صياغة القوانين التي توضح الأفعال التي تستوجب العقاب ونوع العقاب الواجب لها، وهو من أولويات العدالة, بل تركوا حق التعزيز للحاكم يتصرف فيه كيف يشاء[٢٣].

ويختم قاسم أمين مقارنته بين المدنية العربية والمدنية الأوروبية، بتأكيده على أن تمسكنا بالماضي (الحضارة العربية) هو من الأهواء التي يجب أن ننهض لمحاربتها، لأن هذا التمسك يجرنا إلى التدني والتقهقر، ويشعرنا أننا عاجزون وضعفاء ومرضى بمرض عضال، أما الدواء عند قاسم أمين فهو في المعرفة الجيدة بشئون المدنية الغربية والوقوف على أصولها وفروعها وآثارها، لأنها هي السبيل لإصلاح أحوال الأمة العربية باعتبارها ممثلة العلوم العصرية التي مكنت الإنسان من الارتقاء إلى درجة الكمال عقلياً وأدبياً[٢٤].

أما عن تحليل واقع العلاقة بين الأنا والآخر كواقع حديث ومعاصر ملئ بالتشابكات ووجهات النظر من التوافق والاختلاف، فإن قاسم أمين في هذه المرحلة يرى أن الصراع بين الأنا والآخر صراع زائف في الحقيقة، فلا توجد خصومة بين الإنسان العربي والإنسان الأوروبي، أما ما يظهر للعيان من عداوة وصراع فمرده إلى العداوة القديمة التي ورَّثها لأبناء المدينتين الاختلاف في المعتقد الديني، يقول: "إن العداوة القديمة التي استمرت أجيالاً بين أهل الشرق والغرب، بسبب اختلاف الدين، كانت ولا تزال إلى الآن سبباً في أن جهل بعضهم أحوال بعض، وأساء كل منهم الظن بالآخر، وأثرت في عقولهم حتى جعلتها تتصور الأشياء على غير حقيقتها، إذ لا شئ يبعد الإنسان الحقيقة أكثر من أن يكون عند النظر إليها تحت سلطان شهوة من الشهوات"[٢٥].

وكأن قاسم أمين يرد على الذين يروجون لنظرية المؤامرة الغربية على الأمة العربية، فيرى أن هذا الظن ضرباً من الوهم، لأن الأوربيين إذا كانوا يقصدون الإضرار بنا كعرب، فما عليهم إلا أن يتركونا لأنفسنا، فإنهم لن يجدوا وسيلة أوفي بغرضهم فينا من حالتنا الحاضرة[٢٦].

بل إنه يلقى باللائمة على الأنا الذي يتنكر لفضل الآخر، إما رياءً ونفاقاً، وإما لعدم تعوده على الاعتراف بالحق لخصمه، وإما لخوفه من الاتهام بالتجرد من

(ISSN: 2536 - 9555)

الوطنية والعداوة للدين والأمة، بالإضافة إلى أن اعترافه هذا قد يؤدى إلى طمع الآخرين فيما لدينا[٢٧].

ذلك هو رأى قاسم أمين في العلاقة بين الحضارة العربية والحضارة الغربية من الناحية الحضارية، ولنا عليه الملاحظات الآتية:

أولاً: هاجم قاسم أمين مفهوم العلم في الحضارة العربية من وجهين، الأول: تدخل الفقهاء بتأويلاتهم للكتاب والسنة التي أفسدت العلم، والوجه الثاني: بدائية العلم العربي وعدم قدرته على التوصل إلى مبادئ العلم الحقيقية، فيما يخص الوجه الأول يمكن القول أن اعتماد قاسم أمين على اجتهادات الفقهاء وموقفهم من العلم– إذا كان صحيحاً– لا يُعد سنداً مقنعاً على تأخر المدنية العربية العلمي، أما المرجعية– في نظرنا– فهو موقف القرآن والسنة النبوية من العلم، ذلك الموقف الذي لا يحتاج إلى تأويلات أو برهان، وهو أوضح من أن نستشهد له بنصوص[٢٨]. أما الوجه الثاني وهو بدائية التفكير العلمي العربي، فإنه مردود عليه من خلال بحث مصدر مبادئ العلم الحقيقية التي قامت عليها الحضارة الغربية، ذلك أن العلم عند اليونان– مرجعية قاسم أمين في تفرد الحضارة الغربية العلمي– لم يكن إلا أحكاماً عامة ونظرية تفتقر إلى الملاحظة والتجربة والفروض والمقاييس العلمية، أما عن العلم الذي اعتمدت عليه الحضارة الغربية الحديثة في نهضتها فهو العلم العربي، الذي وضعه المسلمون الأوائل اعتماداً على الملاحظة والتجربة وأقاموا عليه صرح مدينتهم[٢٩].

تقول زيجريد هونكى: "إذا كان الفكر الإغريقي يجنح إلى مفهوم العقل والفكر الخالص، الذي يعمل على تجريده من المعطيات التي تقدمها له الحواس... فإن الفكر العربي كان نتاجه التجربة والحس والأخذ بمفاهيم الخبرة والتجربة المصحوبة بالمشاهدة المتأنية وبالمقارنة والتكرار والفحص تحت مختلف الظروف"[٣٠].

ثانياً: الحكم المطلق الذي أصدره قاسم أمين على النظام السياسي الإسلامي

بفقدانه– عبر تاريخه كله– لمقومات النظام السياسي الناجح، وهذا الحكم مجاف للحقيقة والواقع الذي يقول أن هناك فرقاً بين فترة حكم الخلافة الراشدة التي توفرت فيها مقومات النظام السياسي، وفترة حكم الخلافة الأموية والعباسية التي انقلب فيها النظام السياسي الإسلامي استبدادياً وفقد بالفعل مقومات النظام السياسي الإسلامي، وعلى ذلك فإن التوحيد بين الحقبتين يُعد مصادرة على المطلوب، لأن أمثال هذه الأحكام ينبغي أن يكون الأصل فيها هو مدى اقتراب الحكومات الإسلامية المتعاقبة تاريخياً، من المبادئ والقواعد العامة للنظام السياسي الإسلامي– حق الانتخاب، الشورى، والعدالة، حق الحكم وحقوق المحكومين...الخ– أو ابتعادها عن هذه الأصول.

ثالثاً: وجهة نظر قاسم أمين الأخيرة هذه تنطوي على انبهار شديد من ناحيته بالمدنية الغربية، ذلك الانبهار الذي مثل عنده أحد الأسباب المهمة التي جعلته يرفض المدنية الغربية باعتبارها عائقاً أورثت لدينا نحن العرب شعوراً بالعجز والضعف وعدم القدرة على التعامل مع الحاضر، هو نفس الانبهار الذي يمثل– من وجهة نظرنا– أسباب إخفاق قاسم أمين في رؤيته هذه، لأن هذا الانبهار الشديد بالمدنية الغربية– عند قاسم أمين– جعله يراها الطريق الأوحد لخروج الأمة العربية من كبوتها الحضارية، وبالتالي كان المخرج عنده هو ذوبان الحضارة العربية في الحضارة الغربية وضياع الخصوصية الثقافية العربية– الإسلامية، وهذا هو المقصود– تماماً– بالسيطرة الثقافية، "أي إعادة بناء وإنتاج الشرق علمياً وعقائدياً واجتماعياً، على النحو الذي يتفق مع العقلية الغربية، وهذا يمثل نوعاً من استلاب الذات واستهوائها لإخضاعها لهذا التنظير المخالف لواقعها، وتعميق الشعور لديها بالعجز عن فهم ذاتها، واقتناعها بأنها مادامت عاجزة، فلابد أن تقنع بتقييم الآخر الغربي لها، وتقبله راضية مرضية، ومن ثم تصير مستعدة لأي نوع آخر من السيطرة دون مقاومة تذكر"[٣١].

(ISSN: 2536 - 9555)

ثانياً: **البعد الديني**:

يُعد الحديث حول مكانة الدين ودوره في النهضة من الإشكاليات المهمة التي كانت موضع اهتمام المفكرين الغربيين والشرقيين على حد سواء، باعتباره يمثل نوعاً من التمايز للحضارة التي ينتمي إليها، ولذلك نعتقد أن أي حديث يدور حول العلاقة بين الأنا والآخر يتجاهل البعد الديني أو لا يعطيه الدور الملائم له، هو حديث بعيد عن الواقع ومجاف للحقيقة التي تقول أن هناك صراعاً بين الأديان، وخاصة الدين المسيحي والدين الإسلامي، وهذا الصراع ألقى بظلاله على العلاقة بين الحضارة الأوروبية والحضارة العربية عبر تاريخ العلاقة بينهما.

هذا إذا وضعنا في الاعتبار أن الصراع الديني المسيحي – الإسلامي هو في الأساس قضية استشراقية لها أبعادها التاريخية وأصداؤها المعاصرة، بل إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع، فقد كان له أكبر الأثر في صياغة التصورات الأوربية عن الإسلام، تلك التصورات التي شكلت– في جانب من جوانبها– الموقف العدائي للإسلام كدين، الذي وضح في رؤية بعض المستشرقين أمثال: تنمان (ت ١٨١٩م)، وفيكتور كوزان (١٧٩٢–١٨٤٧م)، وأرنست رينان (١٨٢٣–١٨٩٢م)، وجولد تسيهر (ت ١٩٢١م)، ونيكلسون (ت ١٩٤٥م) وغيرهم، الذين انحصرت رؤيتهم في أن الدين الإسلامي يدعو إلى الركود العقلي والجمود الفكري ويحول دون البحث في العلم والفلسفة، على عكس الدين المسيحي فهو منبت النظم النيابية ومهد الحرية ومصدر العلم والتفكير العقلي، يقول رود نسوف: "إن أصحاب هذه الدعوى أرجعوا نجاح الأمم الأوربية إلى الدين المسيحي، وتخلف العالم الإسلامي إلى الإسلام، فالمسيحية بحكم طبيعتها تساعد على التقدم، في حين أن الإسلام بحكم طبيعته يؤدى الركود والتخلف الحضاري"[٣٢].

أما إذا بحثنا هذه التصورات في التنظير الفكري والسياسي المعاصر للعلاقة

بين الحضارة العربية والحضارة الأوروأمريكية، نجد أن الصراع مازال موجوداً، وقد وضح– دون مواربة– في اعتقاد وتصريح الساسة الغربيين بأن الحرب بينهم وبين العرب هي حرباً دينية في المقام الأول، وقد ترجم ذلك بعض المنظرين، أمثال فوكوياما، وهنتنجتون.

يفند قاسم أمين الاتهامات التي وجهها الآخر، في شخص دوق داركور، للدين الإسلامي، من قبيل أن: الإسلام هو السبب في حالة العقم الفكري عند المسلمين، كما أنه السبب في انحطاط وضع المرأة، والقرآن الكريم كتاب ملئ بالمتناقضات، ناهيك عن أن محمد (ص) لم يكن مخلصاً في دعوته بقدر ما كان طالباً للمتع الدنيوية، ويرفض هذه الاتهامات في كتاب أصدره باللغة الفرنسية عام ١٨٩٤م، ويكون بذلك من أوائل المفكرين العرب الذين تنبهوا للدعوات الاستشراقية المغرضة والبعيدة عن الموضوعية.

يرفض قاسم أمين وصف دون داركور للإسلام بأنه دين سيئ وأنه يمثل حالة العقم الفكري عند المسلمين، تلك الدعوى التي رددها من بعده كثيرون، أمثال: فيكتور كوزان، وأرنست رينان، وجولد تسيهر، وغيرهم، ويرى أن الدين الإسلامي يمثل صورة الكمال الإنساني الحقيقي وهو عنوان المدنية والوسيلة الأفضل للرقى الأخلاقي(٣٣). وهو المنوط به بعث الأمة العربية من جديد، يقول: "الإسلام الذي ظل طويلاً يمثل القوة والنور في العالم كله، مازال يملك ذخيرة ثقافية، وعظمة خُلقية تتيح له أن يصل حلقات السلسلة المحطومة، وأن يعيد إيقاد الشعلات المنطفئة"(٣٤). ليس في الأمة العربية فقط، بل في العالم بأسره، يقول: "إنني أبعد ما أكون عن التعصب، غير أنني أعتقد أن الإسلام هو أفضل راية يمكن أن تجمع حولها البشرية كلها متحدة في عقيدة واحدة، ذلك هو الإسلام ببساطته، وباختفاء الصوفية من نصوصه، وبإيجابياته الخلقية، وإمكان تلائمه ببساطة أصيلة مع كل التطورات، وبتسامحه الكبير الذي يتميز به: يجمع في، رأيي،

(ISSN: 2536 - 9555)

مؤهلات تكفي لترشيح نفسه ليكون دين العالم كله"[٣٥].

ويركز قاسم أمين في هذا الإطار على أداة التقدم الفكري، وهي العقل ومكانته في الدين الإسلامي باعتباره يمثل الأنا، وفي الدين المسيحي باعتباره يمثل الآخر، فيرى أن الإسلام نفي ما عُرف بالسلطة الدينية، ورفض أن يكون هناك ممثلين لهذه السلطة من العلماء أو الشيوخ، وكل ما يتمتع به هؤلاء في الإسلام هو سلطة تقديرية من الأمة لهم على اجتهادهم وعلمهم وليس أكثر من ذلك[٣٦]. وهذه المسألة تُعد من أكثر المسائل التي اهتم بها الإمام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م) في حوار مع فرح أنطون (١٨٧٤-١٩٢٢م) حينما دعي إلى قلب السلطة الدينية في الإسلام والإتيان عليها من أساسها[٣٧].

أما في المسيحية فإن مسألة السلطة الدينية موجودة وواضحة، وتتمثل في إلغاء المسيحية للعقل البشرى ونصيحة ممثلي الكنيسة لإتباعها بالإيمان وعدم المجادلة أو النقاش، كما تتمثل أيضاً في قصر الفهم الديني على طبقة الكهنة دون عامة الناس، وفي عصمة الباباوات، وصكوك الاعتراف وبيع الغفران عن الخطايا، وكلها أشياء تجعل من الدين المسيحي مزيجاً من التناقضات والمستحيلات ومنافاة العقل والطبيعة البشرية، حتى إن أعظم العقول لا تقوى على فهمه[٣٨].

أما عن تحميل هذا الدين أسباب تدنى وضع المرأة المسلمة في مقابل دفع الدين المسيحي لشأن المرأة، فإن قاسم أمين يرى أن هذا الاتهام يفتقر إلى الدليل، يقول: "العربي الذي يحب أن ينسب كل شئ حسن إلى دينه، يعتقد أن المرأة الغربية ترقت لأن دينها المسيحي ساعدها على نيل حريتها، ولكن هذا الاعتقاد باطل، فإن الدين المسيحي لم يتعرض لوضع نظام يكفل حرية المرأة، ولم يبين حقوقها بأحكام خاصة أو عامة، ولم يرسم للناس في هذا الموضوع مبادئ خاصة يهتدون بها، وقد أقام هذا الدين في كل أمة دخل فيها بدون أن يترك أثراً محسوساً

في الأخلاق، من هذه الجهة، بل تشكل نفسه بالشكل الذي أفادته إياه أخلاق الأمم وعاداتها"، أما عن موقف الدين الإسلامي من المرأة، فإن الشريعة الإسلامية– عند قاسم أمين– سبقت كل الشرائع في المساواة الفعلية بين الرجل والمرأة، فأعلنت حريتها واستقلالها، في الوقت الذي كانت فيه في حضيض الانحطاط عند الأمم الأخرى، وعلى ذلك فإن سبب تدنى وضع المرأة ليس هو الدين الإسلامي ولكن هي التقاليد والعادات البالية التي ألصقت بالدين وهي أبعد ما يكون عنه(٣٩).

وبناءً عليه، يفرق قاسم أمين بين اتهام الدين الإسلامي في حد ذاته بأنه السبب في التأخر والجمود الذي يعيش فيه العرب والمسلمين، وبين اتهام المسلمين الذين يحملون شعارات هذا الدين زيفاً وبطلاناً، فيرى أن كل من يعرف حقيقة الدين الإسلامي يدرك أنه من أقوى العوامل التي تسوق الإنسان إلى الترقي والتقدم، أما ما يزعمه البعض من عادات وتقاليد وآداب موهومة، فهي مجرد بدع وخرافات تشكل ذلك الخليط، الذي سماه البعض ديناً واعتبروه إسلاماً، المانع من الترقي والتقدم وليس الدين الحقيقي(٤٠).

يفرد قاسم أمين للدين الإسلامي الدور النهضوى الملائم له في النهضة العربية، سواء الوسيطة أو الحديثة المرجوة، وهذه نقطة محورية في صراع الأنا والآخر، فيعتبر أن الدين الإسلامي، كان ولا يزال، بتعاليمه ومبادئه وأصوله الأولى، باعثاً من بواعث النهضة العربية في العصر الوسيط وإليه تعود العظمة والعزة والمجد الذي عاشت فيه الأمة العربية، أما ما حدث لهذه الأمة في العصر الحديث، من تأخر وجمود على مختلف المستويات، فإن له أسباب أخرى لا تتعلق بالدين في ذاته، أهم هذه الأسباب **أولاً:** فساد الأنظمة السياسية العربية الحديثة وتأثيرها على الحالة الاجتماعية، وعدم وضوح العلاقة بين الحاكم والمحكومين وكأنهم رقيق لديه لا يمتلكون إرادتهم ملكاً تاماً، **ثانياً:** التأخر في تحصيل العلوم

(ISSN: 2536 - 9555)

العملية والعسكرية خاصة، **ثالثا:** فشل النظم الاقتصادية العربية، **رابعاَ:** الانحطاط الأخلاقي في المجتمعات العربية، وسيطرة الجهل والخرافة على مجريات الثقافة، **خامسا:** التفرق والشرذمة بين أبناء الأمة(٤١).

نخلص من هذا التشخيص الدقيق لأسباب ضعف الأمة العربية في العصر الحديث، إلى أن قاسم أمين لم يتخل عن الدور النهضوى الحضاري للدين ولم يؤمن كمنصور فهمي (١٨٨٦-١٩٥٥م) بأن الدين يتراجع في العصر الحاضر أمام التيارات التحديثية لكي يعتكف في ميدان الشعر والميتافيزيقا(٤٢). كما أن توصيفه لعوامل الضعف والتدهور التي أصابت– الأمة العربية– تظهر قدراً كبيراً من استشرافه للمستقبل، ذلك أن معظم هذه النواقص مازالت تعانى منها الأمة العربية، وكأن قاسم أمين يعيش بيننا الآن وهو يشخص حالتنا الحاضرة.

كما يرفض قاسم أمين دعوى أن القرآن الكريم ملئ بالمتناقضات تلك الدعوى التي يُعد دون داركور من أوائل الذين تبنوها، ورددها من بعده بعض المستشرقين الذين لهم باع طويل في الدراسات الإسلامية، أمثال: جولد تسيهر، ونيكلسون، وغيرهم(٤٣).

ويرى قاسم أمين أن ما يبدو من تناقضات تصدم الأوربيين هي تناقضات ظاهرية يقع فيها من لا يعرف منهج القرآن الكريم، ناهيك عن أن السبب قد يرجع إلى الاعتماد على التفسيرات المختلفة للقرآن والتي يقع فيها الاختلاف تبعاً لرؤية كل مفسر، أما القرآن في ذاته، فهو أبعد ما يكون عن التناقض، وله أهداف عملية ونظرية ينبغي لفت النظر إليها، فهو الذي يضم نظرية هذا الدين ويحوى المبادئ التي تنظم الحياة السياسية والمدنية، كما أنه كتاب أخلاق وفلسفة عملية ومنطقية، يجد الإنسان فيه إلى جانب قواعد السلوك والوصايا الإنسانية تنظيمات اجتماعية وتشريعية تستغرق معظم أجزائه بالقياس إلى الجزء النظري الخالص(٤٤).

أما عن الاتهام الموجه إلى محمد (ص) بأنه كان طالباً للمتع الدنيوية، وأنه كان

يحب النساء كثيراً، ذلك الاتهام الذي ذكره دون داركور وأيده كثيرون من بعده، أمثال منصور فهمي (١٨٨٦-١٩٥٩م)[٤٥]. وغيره، ويرى قاسم أمين أن هذا الاتهام باطل لعدة أسباب، **أولها:** هذا الاتهام يتنافي مع عظمة المهمة التي كانت ملقاة على عاتق النبي (ص) من الناحية السياسية والاجتماعية ونجاحه في تحقيق أهدافه بنسبة تفوق تصورات العقل البشرى. **وثانيها:** أن هذه الزيجات قد أملتها احتياجات سياسية ضمنت له العون والتأييد من قبائل كثيرة، **وثالثها:** أن هذا الاتهام لا يتوافق مع السلوك الشخصي والعادات الغذائية التي كان يتبعها النبي (ص)، فقد كان يكتفي في وجبته بحفنة من تمر، **ورابعها:** أن هذا الاتهام لا يدل على حب النبي (ص) لأجساد النساء، بقدر ما هو ود وتعاطف نابع من الاحترام والتقدير والرعاية[٤٦].

ذلك هو موقف قاسم أمين من الدين ودوره في الصراع بين الأنا والآخر، ونلاحظ أنه في تلك المرحلة يدافع عن الدين الإسلامي (ممثلاً للأنا) باعتباره رافداً هاماً من روافد الحضارة العربية، في وجه الانتقادات التي وجهت إليه من الآخر، وكونه السبب في سقوط الحضارة العربية في العصر الوسيط وعدم قدرتها على القيام مرة أخرى في العصر الحديث، والسمة الأساسية في هذا الموقف هي الدفاع عن الدور النهضوى للدين الإسلامي، من خلال قدرته على بعث المدنية العربية مرة أخرى، كما حدث في السابق.

ولكن نلاحظ أن هناك نوعاً من التطور الفكري عند قاسم أمين، "المرأة الجديدة ١٩٠٠م" وذلك في تحييده لدور الدين النهضوى وعدم انتقاده انتقاداً مباشراً وواضحاً، يصل لدرجة الرفض التام مثلما حدث مع نواحي الحضارة العربية الأخرى، العلمية، والسياسية، والاجتماعية- كما وضحنا في التطور الذي لحق بفكره في البعد الثقافي- بل يمكن القول- دون مواربة- أنه يُفرد للدين تأثيراً محدوداً وملائماً لما وصلت إليه العقلية العربية من مستوى للتفكير، هو غير راض

(ISSN: 2536 - 9555)

عنه، وبالتالي فهو يتراجع عن الدور النهضوى للدين الإسلامي، ذلك الدور الذي دافع عنه في السابق، يقول في معرض نقده للمدنية العربية: "غنى عن البيان أنه عند كلامنا على المدنية الإسلامية لم نقصد الحكم عليها من جهة الدين، بل من جهة العلوم والفنون والصنائع والآداب والعادات، التي يكون مجموعها الحالة الاجتماعية التي اختصت بها، ذلك أن عامل الدين لم يكن وحده المؤثر في وجود تلك الحالة الاجتماعية، فهو على ما به من قوة السلطان على الأخلاق لم يُنتج إلا أثراً مناسباً لدرجة عقول وآداب الأمم التي سبقت"(٤٧).

وبناءً عليه، يمكن القول أن رؤية قاسم أمين الأخيرة هذه، بها قدراً من التورية وعدم الوضوح، لأنه إذا سلمنا أن هناك دوراً للدين في النهضة، فإن مهمته لن تكون هي تكريس الوضع القائم والحفاظ على مستوى التفكير في الأمة التي ينزل عليها، بل إحداث ثورة تغيرية حضارية، هدفها التأثير على مختلف نواحي الحياة– التي يسميها قاسم أمين الحالة الاجتماعية– تأثيراً إيجابياً وفاعلاً وتغييرها نحو الأفضل، ويكون هذا التأثير– في الغالب– مخالفاً لدرجة تفكير الأمة التي يوجد فيها، وإلا ما الفائدة من وجوده؟ فأما أن نسلم بأن للدين دوراً حضارياً نهضوياً في الأمم أو نسلبه هذا الدور.

وإن كنا في هذا السياق لا نريد التحامل عليه، ذلك أن تجديد الخطاب الديني ليس من السهولة بمكان، خاصة في ظل التعامل مع العقل الجمعي الذى لا يتورع عن إتهام المفكر أو المصلح، الذى يهدف الي التغيير نحو الأفضل، بالكفر أو الخروج عن الملة وإساءة استعمال الدين، كما حدث مع الإمام محمد عبده علي سبيل المثال.

وهناك مظهراً آخر للتطور الذي لحق بفكر قاسم أمين يُعد أكثر وضوحاً من سابقه، وهو أن قاسم أمين في "المرأة الجديدة" كان حسن الظن كثيراً بالمستشرقين وأحكامهم الخاصة بالمدنية العربية– الإسلامية ومختلف إنجازاتها، فلم يبصر

الجانب المغرض في دراساتهم، أياً كانت دوافعه دينية أم سياسية، وحكم عليها حكماً عاماً وقاطعاً بأنهم تحلوا بالموضوعية العلمية التي افتقدها الشرقيين المهتمين بالتراث العربي، يقول: "لقد وصل الغربيون إلى درجة رفيعة من التربية– يقصد الحيادية العلمية– وأشتغل كثيراً ممن كملت فيهم تلك التربية بالبحث عن أحوال الشرقيين والمسلمين، وكتبوا في عاداتهم ولغتهم وآثارهم ودينهم، وألفوا فيها كتباً نفيسة أودعوها آراءهم ونتائج بحثهم، وامتدحوا ما رأوه مستحقاً للمدح، وقدحوا فيما رأوه محلاً للقدح، غير ناظرين في ذلك إلا إلى تقرير الحق وإعلان الحقيقة صادفوا الصواب أم أخطأوه، أما عندنا فلم تبلغ التربية هذا المبلغ، لهذا كان حُكم كُتابنا في هذه الأشياء في قياد الشهوات وتحت سلطة الإحساس والإلف والعادة"(٤٨).

وبغض النظر عن المقارنة بين الموضوعية العلمية التي قصرها قاسم أمين على الآخر ونفي إمكانية وجودها عند الأنا، فإننا نعتبر أن حديثه السابق لا يتوافق مع قيامه هو بالرد على "دوق داركور" وتفنيد مزاعمه، والسبب هو أنه لو كانت التربية العلمية التي يتحدث عنها قاسم أمين قد أثرت في دوق داركور، لما كلف قاسم أمين نفسه عناء الرد عليه، ولأعتبر انتقاده للدين الإسلامي ولنبوة محمد (ص).. وغيرها، من قبيل الآراء الموضوعية المنصفة التي يجب التسليم بصحتها، ولكان وصفه لأراء داركور، بأنها بالغة القسوة وأنه مرض لمدة عشرة أيام قبل أن يرد عليها(٤٩). وصفاً غير ذي معنى.

ولكن ما حدث غير ذلك، فقد اعتبر قاسم أمين آراء داركور غير موضوعية، وانتقدها من خلال كتابه "المصريون" الذي ألفه خصيصاً لهذا الغرض، ولهذا نسلم بهذا التطور الذي لحق بفكره في موقفه من الآخر.

ثالثاً: البعد الاجتماعي:

يُعد البعد الاجتماعي من أهم الأبعاد التي تعرض لها قاسم أمين، في موقفه

(ISSN: 2536 - 9555)

من الحضارة الغربية، خاصة وأن أهم مؤلفاته كانت حول معالجة الأمراض الاجتماعية التي أصابت الأمة المصرية خاصة والعربية عامة، ومن أهمها قضايا تحرير المرأة، وتعدد الزوجات، والحجاب، والعادات والتقاليد، وغيرها من القضايا التي شكل الآخر المحرك الرئيسي لها عند المفكرين الغرب.

بداية لم ير قاسم أمين في الحضارة الإسلامية أية إهدار لحق من حقوق المرأة، بما يؤكد أن منطلقه الفكري يركز على الثوابت الأساسية في حقوق المرأة من المنظور الإسلامي، ولذلك يرفض دعوى أن وضع المرأة قبل الإسلام كان أفضل من وضعها في الإسلام، ويؤكد أن المرأة عند العرب كانت عند العرب قبل الإسلام مجرد نوعاً من المتاع يستخدمه الرجل ويسيء استخدامه، وكان من المباح عندهم أن يقتل الآباء بناتهم، وأن يستمتع الرجال بالنساء من غير قيد شرعي ولا عدد محدود، ومرجع ذلك إلى طبيعة الحياة العربية قبل الإسلام التي كانت تعتمد على الحرب والترحال، بما يبرز دور الرجل في مقابل إضعاف دور المرأة، حتى جاء الإسلام فأعاد إليها الحقوق المسلوبة وحررها من العتق(٥٠).

ومن الجدير بالذكر أن رأى قاسم أمين هذا يتعارض مع رؤية كثير من المستشرقين ومن تابعهم من المفكرين العرب، كمنصور فهمي، الذي ذهب إلى أن المرأة قبل الإسلام كان لها شخصيتها المستقلة ولم تكن تعانى من نتائج سلبية إلا مع ظهور الإسلام، يقول "على الرغم من أن الإسلام أعطى المرأة شخصية خاصة بها، إلا أننا نؤكد أن المرأة بعد الإسلام وجدت في وضع أكثر دونية عما كانت عليه قبل الإسلام، والشخصية التي أعطاها محمد للمرأة لم تستطع أن تتطور وراء نطاق معين، لأن الإلوهية أرادت للمرأة ألا تتخطى القوانين المنزلة من السماء"(٥١).

أما عن المقارنة بين وضع المرأة في الحضارة العربية والحضارة الغربية، فإن قاسم أمين يُقر في أكثر من موضع من مؤلفاته أن الحضارة العربية سبقت

الحضارة الغربية في تقرير حقوق المرأة ومساواتها بالرجل، يقول "المطلع على الشريعة الإسلامية يعلم أن تحرير المرأة من أنفس الأصول التي تفتخر به على سواها، لأنها منحت المرأة، من اثني عشر قرناً مضت، الحقوق التي لم تنلها المرأة الغربية إلا في هذا القرن– التاسع عشر– وبعض القرن الذي سبق– الثامن عشر– حتى إنها لا تزال محرومة من بعض الحقوق[٥٢].

ويعدد قاسم أمين الحقوق التي منحتها الشريعة الإسلامية للمرأة وتميزت بها عن الحضارة الغربية، فيراها في: الكفاءة الذاتية للمرأة في تدبير ثروتها والتصرف فيها، وهو ما يسمى في العصر الحاضر، الحقوق المدنية والتي تتمثل في أهليتها القانونية لممارسة أي عمل من أعمال الإدارة أو نقل الملكية، دون الحاجة للحصول على إذن من زوجها أو تصريح من المحكمة، فهي تستمد أهليتها من شخصيتها المستقلة وليس للقوامة الزوجية، في هذا الشأن، إلا دوراً معنوياً، فهي تستطيع البيع أو الشراء أو الهبة أو التقاضي بحرية تامة، ومن هذه الحقوق، أن الشريعة حثت على تعليم المرأة وتهذيبها، ولم تحجر عليها الاشتغال بأي صنعة أو علم، بل وبالغت في المساواة بينها وبين الرجل، حتى أباحت لها أن تتولى وظيفة الإفتاء أو القضاء، أي الحكم بين الناس، كما أنها ساوت بين الرجل والمرأة في إمكانية التحلل من عقدة الزواج، ووضعت عنها أحمال المعيشة؛ فلم تلزمها بالاشتراك في نفقة المنزل وتربية الأولاد، وغيرها من الحقوق التي إذا ما قورنت بالحقوق الممنوحة من الشرائع الغربية للمرأة يظهر الفارق لصالح المدنية العربية، فالمرأة الفرنسية– مثلاً– تُعد في نظر القانون– عام ١٨٩٤م– ناقصة الأهلية ومحرومة من أي حقوق في إدارة ثروتها الخاصة، كما أنها لم تتساو بالرجل في كل الوظائف العامة إلا منذ زمن قريب[٥٣].

وفيما يخص مسألة تعدد الزوجات، يرفض قاسم أمين اعتقاد بعض الغربيين– وتابعهم في ذلك بعض المفكرين العرب أمثال منصور فهمي–[٥٤]. بأن الشريعة

(ISSN: 2536 - 9555)

الإسلامية لم تساو بين الرجل والمرأة في الحقوق، بدليل أن للرجل حق تعدد الزوجات وهي محرومة من هذا الحق، وسبب هذا الرفض– عند قاسم أمين– أن ما يوجد من تمييز للرجل عن المرأة في مسألة تعدد الزوجات، هو مسألة النسب التي لا يقوم للزواج حياة بدونها، هذا بالإضافة إلى أن التعدد يضمن الأبوة الدائمة للأبناء، ويقضى على ظاهرة الأطفال الغير شرعيين، المنتشرة في المدنية الغربية، وهي نتيجة طبيعية لرفض التعدد كمبدأ أو إقرار اتخاذ الرجال للمحظيات والخليلات وإقامة الروابط والعلاقات خارج نطاق الزواج الشرعي.

وبهذا يصبح التعدد في الشريعة الإسلامية– كما يرى قاسم أمين– ضرورة اجتماعية، وهو محاط بمحاذير وصعوبات تجعل ممارسته نادرة، لأن الأصل في الزواج هو امرأة واحدة(٥٥).

ويبدو رأى قاسم أمين أكثر وضوحاً حينما يعلن أن منطلقه في الحديث عن الحجاب ليس هو الحضارة الغربية ووضع المرأة فيها، وليس كذلك التقاليد المتوارثة التي قيدت المرأة في المجتمعات العربية، فهو يرفض الاتجاهين، لأن اتجاه الحضارة الغربية قد غالى في إباحة التكشف للنساء إلى درجة يصعب معها صيانة المرأة من التعرض لمثارات الشهوة، أما اتجاه التقاليد المتوارثة فقد غالى هو أيضاً في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال، حتى صارت المرأة عندهم مجرد أداة من الأدوات، محرومة من المزايا العقلية والأدبية التي منحتها لها الفطرة الإنسانية(٥٦).

ولذلك يقرر قاسم أمين أن كل من الاتجاهين يمثل عائقاً في وجه قيام المرأة بالدور المنوط بها في نهضة الأمة، خاصة وأنه يربط بين تحرير المرأة ونهوض الأمة ورقيها، فيرى أنه لا يمكن أن يكون للمرأة وجوداً تاماً إلا إذا ملكت نفسها وتمتعت بحريتها الممنوحة لها بمقتضى الشرع، وتمت ملكاتها إلى أقصى درجة يمكنها أن تبلغها، ويرى أن الحجاب بالصورة التقليدية المتوارثة يعد مانعاً يحول

بين المرأة وارتقاءها، وبذلك يحول بين الأمة وتقدمها(٥٧).

ويرفض كذلك أن يكون منطلقه للحديث حول الحجاب هو الحضارة الغربية، بما يؤكد منطلقه الشرعي ورغبته في الحفاظ على الخصوصية الثقافية الإسلامية من الذوبان أو التلاشي في غمار الحضارة الغربية وسطوتها المفروضة على العالم العربي، فيقول: "إنا نطلب تخفيف الحجاب ورده إلى أحكام الشريعة الإسلامية، لا لأننا نميل إلى تقليد الأمم الغربية في جميع أطوارها وعوائدها لمجرد التقليد، أو التعلق بالجديد لأنه جديد، فإننا نتمسك بعوائدنا الإسلامية ونحترمها، ونرى أنها مزاج الأمة تتماسك به أعضاؤها، ولسنا ممن ينظر إليها نظره إلى الملابس يخلع ثوباً كل يوم ليلبس غيره، وإنما نطلب ذلك لأننا نعتقد أن لرد الحجاب إلى أصله الشرعي مدخلاً عظيماً في حياتنا المعاشية، لسنا في مقام استحسان أمر أو استقباح آخر لما فيه موافقة الذوق أو منافرته، وإنما نحن بصدد ما به قوام حياة المرأة، أو ما به قوام حياتنا"(٥٨).

ويؤكد قاسم أمين أن ما يقصده بالحجاب الشرعي هو ظهور الوجه والكفين، أما الانتقاب أو التبرقع، فهما غير مباحين من الشريعة الإسلامية، لا للتعبد ولا للأدب، بل هما من العادات القديمة السابقة على الإسلام والباقية بعده، أما ما يجيزه الإسلام فهو ضرب الخمر على الجيوب، وليس في ذلك شئ من البرقع أو الانتقاب، ويرى أن الإسراف والمغالاة في الاحتياط والمبالغة فيما يظنه البعض عملاً بالأحكام، خرج عن حدود الشريعة وأخذ بمصالح الأمة(٥٩).

وفيما يخص العادات والتقاليد التي تكتنف العلاقات الاجتماعية، فإن قاسم أمين، يرفض العادات والتقاليد التي أضرت بالمرأة في مسألة الحجاب، ولكنه يثنى على العادات والتقاليد الموجودة في نظام الزواج السائد في المدنية العربية، والسبب أن تلك التقاليد مستمدة من الفضيلة، وترسخ الاتحاد بين الزوجين، في مقابل العادات والتقاليد الموجودة في المدنية الغربية والتي يرفضها قاسم أمين لأنها

(ISSN: 2536 - 9555)

تيسر فرص سقوط الحياة الزوجية، وترسخ الفوضى الاجتماعية في العلاقات الزوجية المتحررة من جميع القيود، وكأنها– أي التقاليد– خُلقت لنشر المتعة فقط، ولذلك يندد قاسم أمين بما يحدث من إسفاف وخروج عن الآداب في العلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء عند الأوروبيين، ويقول: "إننا نحس.. أن لنا نظاماً يرسخ من الاتحاد بين الزوجين، فلا نعرف نساء غير نسائنا، كما لا تعرف زوجاتنا رجالاً غيرنا، وهذا ما يجعلنا أزواجاً متفاهمين.. وإذا حدث توافق دام إلى الأبد، أما الإغراء أو الإغواء الخارجي فإنه لا يصل إلينا، وتلك الحقيقة يجب أن ينتهي الأمر بالأوروبيين إلى الاعتراف بها"(٦٠).

ونلاحظ مما سبق، أن منطلق قاسم أمين في الحديث عن البعد الاجتماعي، لم يكن منطلقاً تغريبياً، فهو يستلهم القيم الحضارية الإسلامية في الحديث عن قضايا المرأة ويتمسك بها في مواجهة طوفان الآخر، ولكن هذا الموقف لم يستمر حتى النهاية، إذ نلاحظ أن هناك تطوراً في هذا الموقف، يتبدى في هجوم قاسم أمين على التشريعات والقوانين التي تنظم الحياة العائلية في المدنية العربية ووصفها بالفوضى مقارنة بتلك التي وضعت لتنظيم الحياة العائلية في المدنية الغربية سواء أكانت اليونانية والرومانية أم العربية الحديثة، يقول: "إذا نظرنا إلى حالهم– أهل المدنية العربية الإسلامية– العائلية نجد أنها مجردة من كل نظام، حيث كان الرجل يكتفي في عقد زواجه بأن يكون أمام شاهدين، ويطلق زوجته بلا سبب، ويتزوج عدة نساء بدون مراعاة حدود الكتاب، كل ذلك كان واستمر إلى الآن على ما هو مشهود، ولم يفكر أحد من الحكام أو الفقهاء في وضع نظام يمنع انحلال روابط العائلة... أين هذه الفوضى من النظامات والقوانين التي وضعها الأوربيين لتأكيد روابط الزوجية وعلاقات الأهلية؟ بل أين هي من القوانين اليونانية والرومانية التي لم تغفل في جميع أدوارها عن أهمية العائلة وشأنها في الهيئة الاجتماعية؟"(٦١).

غير أن الأمر لا يتوقف فقط عند الإشادة بالتشريعات والقوانين الغربية، بل يتعداه إلى إعجاب قاسم أمين ببعض التقاليد الغربية، التي كان قد سبق ورفضها تحديداً، وخاصة فيما يتعلق بحرية المرأة في علاقتها بالرجل، بما يوحى بأنه يريد للمرأة العربية تقليد نظيرتها الغربية في تلك العادات والتقاليد الممدوحة لديه، يقول: "بلغ من احترام الرجل الغربي لحرية المرأة أن بنات في سني العشرين يتركن عائلاتهن ويسافرن من أمريكا إلى أبعد مكان في الأرض، ويقضين الشهور والأعوام متغيبات في السياحة، متنقلات من بلد إلى أخرى، كان من حرية المرأة الغربية أن يكون لها أصحاب غير أصحاب الزوج، ورأى غير رأى الزوج، وأن تنتمي إلى غير الحزب الذي ينتمي إليه الزوج، والرجل في كل ذلك يرى أن زوجته لها الحق في أن تميل إلى ما يوافق ذوقها وعقلها وإحساسها، وأن تعيش بالطريقة التي تراها مستحسنة في نظرها، ومع كل ذلك ترى نظام بيوت هؤلاء الغربيين قائماً على قواعد متينة! ونرى هؤلاء الأمم في نمو مستمر"[٦٢].

ويمكن القول أن الأمر انتقل عند قاسم أمين، في تلك المرحلة الفكرية، من مجرد الإعجاب بالحضارة الأوربية إلى الدعوة الصريحة لتقليدها، ليس في مكتسبات المرأة فحسب، ولكن في الأخلاق والآداب، ويبدو هذا في حُكمه على الدرجة التي وصلت إليها الحضارة الغربية من (الأخلاق والآداب) تحديداً، الذي اتخذ طابعاً إيجابياً، إذ راح يربط بين تقدم الغربيين علمياً واقتصادياً وتقدمهم أدبياً وأخلاقياً، ويؤكد أن التقدم المادي لا ينفصل عن التقدم الروحي أو المعنوي، وأن الحضارة الغربية حوت الجانبين، ولا يمكن– في نظره– الإشادة بجانب واحتقار جانب آخر لحضارة واحدة، ولذلك يلوم قاسم أمين على الذين يركزون في نقدهم للحضارة الغربية على التدهور الأخلاقي فيها، لأن هذه السلبيات الأخلاقية ينكرها ويتبرأ منها الغربيون أنفسهم ويسعون لمحوها[٦٣]. كما أنه يرفض وصف آدابنا وأخلاقنا العربية بأنها أرقى مما لدى الغربيين، ويحكم على هذا الوصف بأنه ضرباً من التسلية عديمة الجدوى، يقول: "لا نتردد في أن نصرح بأن القول بأننا أرقى من الغربيين في الآداب هو من قبيل ما تنشده الأمهات من الغنائم لتنويم

(ISSN: 2536 - 9555)

الأطفال"[٦٤].

خلاصة القول أننا نعى أن قاسم أمين لم يتراجع عن رأيه في أهمية التشريع الإسلامي في ذاته لإقرار حقوق المرأة، ولكنه يعترض على فهم هذه التشريعات وتطبيقها تطبيقاً صحيحاً يتلاءم مع واقع الحياة العربية حاضراً ومستقبلاً، وهذا مما لا خلاف فيه، غاية ما نأخذه عليه هو نفيه المطلق عن أهل المدنية العربية توصلهم إلى درجة تشريعية أرقى من الفوضى، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذه الآراء– وغيرها– تجعلنا نعتقد أن موقف قاسم أمين من الآخر لم يأت على وتيرة واحدة، ولكن حدث له نوعاً من التطور لصالح الآخر وليس الأنا.

ملاحظات ختامية:

حدث لفكر قاسم أمين نوعاً من التطور الفكري، جعله يتخلى تدريجياً عن الخصوصية الثقافية العربية، ويدعو إلى استلهام الحلول من المدنية الغربية، وإن كان بقدر من المواربة وعدم الوضوح ظهر مع كتابه المرأة الجديدة (١٩٠٠م)، وتفسير ذلك– في نظرنا– له عدة أسباب:

أولاً: الانتقادات الشديدة التي تعرض لها مؤلفه "تحرير المرأة" جعلته يفقد الثقة في إمكانية إصلاح حال الأمة المصرية والعربية من الداخل، فراح يبحث عن الحلول من الخارج، وكانت الحضارة الغربية هي الأمل المنشود بالنسبة له ولكثير من المفكرين العرب.

ثانياً: كانت الحضارة الغربية، بكل قيمها ومثالياتها، حاضرة في أذهان المفكرين العرب، ومنهم قاسم أمين، ولم تكن قد كشرت عن أنيابها الحقيقية بعد، وهذا ما حدا بمفكرين كثيرين أتوا بعد قاسم أمين إلى أن يتحولوا من الاتجاه التغريبي إلى الاتجاه التوفيقي بعد أن أبصروا الحضارة الغربية وأهدافها الحقيقية، أمثال: محمد حسين هيكل (١٨٨٨–١٩٥٦م)، وإسماعيل مظهر (١٨٩١–١٩٦٢م)، وذكى نجيب محمود (١٩٠٥–١٩٩٣م)، وخالد محمد خالد (١٩٢٠–

١٩٩٦م) وغيرهم.

ثالثاً: لم يكن لدى قاسم أمين القدر الكافي من الثقافة العربية، التي تمكنه من الحكم الدقيق على إنجازاتها، خاصة العلمية والسياسية، مقارنة بالثقافة الغربية التي ألم بها وتفاعل معها، خاصة الثقافة الفرنسية.

حديث قاسم أمين عن العلاقة الجدلية مع الآخر به قدر كبير من استشراف المستقبل، ذلك أن أكثر الأبعاد التي أشار إليها في نهاية القرن التاسع عشر، بخصوص الموقف من الآخر، مازالت تناقش حتى الآن وبفاعلية لا تقل جدواها عن مناقشة قاسم أمين لها، سواء أكان في تشخيص واقع العلاقة، أم في اقتراح الحلول المناسبة للخروج من الموقف المأزوم للنهضة العربية الحديثة والمعاصرة.

لم يؤمن قاسم أمين، في شتى مراحل فكره، بالقطيعة المعرفية مع الآخر، ولم يره أبداً عدواً تجب إزاحته من طريقه، بل إن فكره يناقض بصورة واضحة أفكار المنظرين السياسيين المعاصرين مثل فوكوياما في نهاية التاريخ، وهنتجتون في صراع الحضارات، تلك الأفكار التي تكرس الصراع والحروب الدائمة بين مختلف ثقافات العالم، ويدعو إلى حوار الحضارات والاعتراف المتبادل بالندية والشراكة الإنسانية في صنع مسيرة التقدم.

وأخيراً فإننا نعتقد أن تحقيق علاقة دينامية فعالة مع الآخر، أياً كان نوعه، لن تؤتى ثمارها، إلا حينما تشعر الأنا بأهمية وقيمة وجودها كشريك فعال– كما كانت– في مسيرة النهضة الحضارية الإنسانية، فتسعى إلى تكوين قاعدة خاصة بها، لا تعتمد فقط على التفاخر بالقيم الروحية والأدبية التي تميزها عن غيرها، ولكن تعتمد– بجوار ما سبق– على التقدم العلمي، والاقتصادي، والسياسي، والعسكري كركائز أساسية في التعامل مع الآخر، بدون هذه القاعدة لن تحدث علاقة تفاعلية مع الآخر، لأنه سيظل ينظر إلى الأنا نظرة متعالية يفرض من خلالها توجهاته ورؤاه عنوة، من منطلق أن البقاء للأصلح أو للأقوى.

(ISSN: 2536 - 9555)

هوامش ومراجع البحث:

(١) صمويل هنتجتون: صراع الحضارات، أو النظام العالمي الجديد. ترجمة/ طلعت الشايب، تقديم/ د. صلاح قنصوه دار سطور، القاهرة، ١٩٩٨م ص٢٩٥ أنظر صفحات ٢٩٤، ٣٠٧، ٣٠٨.

(٢) قاسم أمين: المصريون، ضمن الأعمال الكاملة لقاسم أمين، ط. الثالثة، تحقيق د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٢٩١، ٢٩٢.

(٣) المرجع السابق: ص٢٩١، ٢٩٢.

(٤) نفسه: ص٢٨٢، ٢٨٣.

(٥) نفسه: ص٢٧٠.

(٦) نفسه: ص٢٧١، ٢٧٢.

(٧) قاسم أمين: تحرير المرأة، ضمن الأعمال الكاملة لقاسم أمين، ط٣، تحقيق د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٣٧٤.

(٨) قاسم أمين: المصريون، سابق، ص٢٧٥.

(٩) المرجع السابق: ص ٣٧٤، ٣٧٥.

(١٠) قاسم أمين: المصريون، سابق، ص٣٠١، ٣٠٢.

(١١) المرجع السابق: ص٣٠٢.

(١٢) قاسم أمين: كلمات، ضمن الأعمال الكاملة لقاسم أمين، ط٣، تحقيق د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة, ٢٠٠٦م، ص١٥٠.

(١٣) قاسم أمين: تحرير المرأة، سابق، ص٣٧٥.

(١٤) قاسم أمين: أسباب ونتائج، ضمن الأعمال الكاملة لقاسم أمين، ط٣، تحقيق د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص١٧٣، ١٧٤.

(١٥) المرجع السابق: ص١٧٢، ١٧٣.

(١٦) قاسم أمين: تحرير المرأة، سابق، ص٤١١، ٤١٢.

(١٧) المرجع السابق: ص٤١٣.

(١٨) قاسم أمين: المرأة الجديدة، ضمن الأعمال الكاملة لقاسم أمين، الطبعة الثالثة، تحقيق د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٤٥٠، ٤٩٩.

(١٩) المرجع السابق: ص٤٩٤، ٤٩٥.

(٢٠) نفسه: ص٤٩٤، ٤٩٥.

(٢١) نفسه: ص٤٩٦.

(٢٢) قاسم أمين: تحرير المرأة، مرجع سابق، ص٣٢٦.

(٢٣) قاسم أمين: المرأة الجديدة، سابق، ص٤٩٦، ٤٩٧.

(٢٤) المرجع السابق: ص٤٩٩، ٥٠٧.

(٢٥) نفسه: ص٥٠٢.

(٢٦) نفسه: ص٥١٢.

(٢٧) نفسه: ص٥٠٢، ٥٠٣.

(٢٨) د. محمد حسيني أبو سعدة: الاستشراق والفلسفة الإسلامية، دار أبو حربية للنشر، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٢٩١، ٢٩٢.

(٢٩) محمد إقبال: تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة/ عباس محمود، مراجعة/ عبد العزيز المراغى، د. مهدي علام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٦٨م، ص١٤٩، ١٥٠.

(٣٠) أيجريد هونكى: العقيدة والعلم ووحدة الدين الأوروبي وعلم الطبيعة، ترجمة وتقديم/ محمد أبو حطب خالد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٦٤، ص١٦٠.

(٣١) د. محمد حسيني أبو سعدة: الاستشراق، سابق، ص٢٨، ٢٩.

(٣٢) د. محمد حسيني أبو سعدة: الاستشراق، مرجع سابق، ص٥٤، ص٢٧١-٢٧٨.

(٣٣) قاسم أمين: أسباب ونتائج، ص١٩٤.

(٣٤) قاسم أمين: المصريون، ص٢٩٩.

(٣٥) المرجع السابق: ص٢٩٠.

(٣٦) المرجع السابق: ص٢٣٠.

(٣٧) محمد عبده: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، تقديم/ محمد رشيد رضا، مكتبة محمد على صبيح، القاهرة، ١٩٥٤م، ص٥٦.

(٣٨) قاسم أمين: المصريون، سابق، ص٢٦٥، ٢٦٦، ص٢٧٢، ٢٧٣، ص٢٩٠.

(٣٩) قاسم أمين: تحرير المرأة، سابق، ص٣٢٥.

(٤٠) المرجع السابق: ص٣٧٦-٣٧٧، ص٣٨١.

(ISSN: 2536 - 9555)

(٤١) قاسم أمين: المصريون، سابق، ص٢٧٠، ٢٧١، قاسم أمين: المرأة الجديدة، سابق، ص٤٢٦، ٤٢٧.
(٤٢) منصور فهمي: أحوال المرأة في الإسلام، ترجمة/ رفيدة المقدادى، مراجعة/ هاشم صالح، منشورات الجمل، ألمانيا، ١٩٩٧م، ص١٤٠.
(٤٣) د. محمد أبو سعدة: الاستشراق، سابق، ص٢٧٧، ٢٧٨.
(٤٤) قاسم أمين: المصريون، ص٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥.
(٤٥) منصور فهمي: أحوال المرأة، سابق، ص٢٥– ٣٥، ٤٥.
(٤٦) قاسم أمين: المصريون، سابق، ص٢٦٥، ٢٦٧.
(٤٧) قاسم أمين: المرأة الجديدة، سابق، ص٤٩٩.
(٤٨) المرجع السابق: ص٥٠٢، ٥٠٣.
(٤٩) قاسم أمين: المصريون، سابق، ص٣٠٣.
(٥٠) قاسم أمين: المصريون، سابق، ص٢٦٧، تحرير المرأة: سابق، ص٣٢٤، المرأة الجديدة، ص٤٥٩، ٤٦٠.
(٥١) منصور فهمي: أحوال المرأة في الإسلام، سابق، ص١٠٧، ١٠٨.
(٥٢) قاسم أمين: المرأة الجديدة، سابق، ص٤٢٢.
(٥٣) قاسم أمين: المصريون، ص٢٥٠، المرأة الجديدة، ص٤٢٢، ٤٢٣، تحرير المرأة: ص٣٢٥، ٣٢٦.
(٥٤) منصور فهمي: أحوال المرأة، سابق، ص١٤١.
(٥٥) قاسم أمين: المصريون، ص٢٥٢–٢٥٤، تحرير المرأة: ص٣٢٥، ٣٢٦.
(٥٦) قاسم أمين: تحرير المرأة، ص٣٥٠.
(٥٧) المرجع السابق: ص٤٥١، ص٣٦٠.
(٥٨) المرجع السابق: ص٣٥٩، ٣٦٠.
(٥٩) المرجع السابق: ص٣٥٠، ٣٥٥، ٣٥٧.
(٦٠) قاسم أمين: المصريون، سابق، ص٢٦٠، ٢٦١.
(٦١) قاسم أمين: المرأة الجديدة، سابق، ص٤٩٧.
(٦٢) المرجع السابق: ص٤٥٢، ٤٥٣.
(٦٣) المرجع السابق: ص٥٠٠–٥٠١.
(٦٤) المرجع السابق: ص٥٠٣.